

الشريف الأدريسى

يضع أقدام وأصح خريطة جغرافية للعرب في القرنين

للأستاذ محمد عبد الله ماضي

عضو لجنة تخليد ذكرى الامام محمد عبده بألمانيا

١ - تمهيد :

إنني إذا تحدثت عن الخريطة الأدرسية فانما أتحدث عن محمود علي خالد من مجهودات أحد أسلافنا الأجداد ، عن مبرة من مبرات رجل من رجالنا في التاريخ ، ويد من الأيدي البيضاء التي أسداها أحد علماء الاسلام وأبناء العرب الى العلم والعالم يوم كانوا قادة المعرفة وحملوا لوائها على وجه البسيطة ، ويوم كان الشرق يعلى كفته على الغرب ويقوده الى مسالك الحياة الحق على ضوء العلم ، وفي سبيل الهدى والمعرفة . أتحدث عن أقدم خريطة عالية جغرافية صادقة عرفها التاريخ ووصلت الى أيدنا ، وأقرب صورة عرفت في تلك العصور السالفة مطابقة لما وصل اليه العلم الحديث ولما نعلمه الآن علم اليقين ، تلك هي «خريطة الشريف الأدريسى» التي أظهرت في وضوحها براعة علمية فائقة ، وخلدت لنفسه بها ذكراً طيباً حياً بين العلماء الأجداد سوف لا يزال يضيوع شذاه ويتشر عبيره مادام للعلم أهل يقدرونه ، وما دام هناك من يعرف للعلماء حقوقهم .

ولم يكن كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) إلا شرحاً لهذه الخريطة وتطبيقاً عليها ، وهو كتاب ضخم يقع في جزئين كبيرين الحجم ، وإن كثيراً من علماء البحث في الشرق والغرب وفي مختلف العصور ، قد بحثوا بحثاً مستفيضاً في هذا الموضوع الشائق . ولقد كان آخر من عني بذلك من علماء البحث الجديد الأستاذ « كورتاد ميللر » أحد العلماء الألمان الأجله فانه أخرج الخريطة في ثوب قشيب ، وطبعها طبعة ملونة سنة ١٩٢٨ وكتب عنها الفصول الطوال ، وعقد اللوازمات بينها وبين الخرائط الجغرافية القديمة والحديثة ، وأشاد بمنزلتها كأساس قوى متين ، ومرجع منظور اليه بين التجلة والاحترام من مراجع هذا العلم وأسه .

٢ - من شريف الأدريسى ؟

الأدريسى هو الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس ينتسب الى بيت الأدارسة الذي حكم مدينة «تالقة» في النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى بعد سقوط خلافة قرطبة في بلاد الأندلس .

هذا البيت يمت بصلة القرابة الى الأسرة الأدرسية التي حكمت في مراکش ١٣٥ سنة من ٧٩١ الى ٩٢٦ م .

وهاتان الأسرتان ترجعان معاً في نسبهما الى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

إدريس هذا أفلت من يد العباسيين بعد اشتراكه في ثورة العلويين

عليهم في ولاية موسى الهادى ، وفر من وجههم الى بلاد المغرب

سنة ٧٨٤ م وهناك أسس مملكة الأدارسة التي ورثها أبناؤه

من بعده . بعد أن بسط يده على تلك الجهة التي نزل بها ، بعضها

بمؤالة سكانها له ، والبعض الآخر بواسطة الحرب وبعد تحكيم

السيف ، وما زال الأدارسة هناك يدرون ويحكمون حتى غلبهم

الفاطميون على أمرهم وانزعوا الملك من يدهم . صاحبنا الأدريسى وولد

سنة ١١٠٠ ميلاد المغرب في «تطوان» على إحدى الروايات أو في

«سبتة» كما في الرواية الأخرى حيث هاجر والده وبعض أقاربه

في نهاية القرن الحادى عشر ، وأين أم الأدريسى دراسته وتلقى

دروسه ؟ لم يذكر المؤرخون ذلك . ولكن الأمر كما قال الأستاذ

« ميللر » ليس بمسير ، فان القارى لوصفه الدقيق الواقى لمدينة

« قرطبة » يستطيع أن يستنبط من ذلك أنها كانت مقر دراسته

وموطن تخرجه . نشأ هذا الرجل وقد حبيت اليه الأسفار من

صفرة ، فبدأ أسفاره وهو فى السادسة عشرة ، وسافر الى البلدان

الواقمة على البحر الأبيض المتوسط ، وتقلت في شمال أفريقيا ،

ودرس خصائص أهل هذه البلاد وعوائدهم . فوق هذا سافر الى

سواحل فرنسا في المحيط الاطلانطى ، والى سواحل انكلترا كما

حدثت في بعض كتاباته . وفي نهاية الأمر دعاه رجار « روجر الثاني

النورمانى » ملك صقلية الى الرحلة اليه والزول عنده في « بيلم »

على الرحب والسعة والأقامة ببابه كأحد أفراد الحاشية معزراً

موفور الكرامة . رجاه ذلك الملك الجليل في هذا بعد أن وصل

الى مسامعه من هو الأدريسى ، وبعد أن علم منزلة الأمير العلمية .

قبل الأدريسى هذه الدعوة الكريمة وشد رحاله نحو صقلية ليأخذ

ذلك الوقت كانت الحروب الصليبية تآفة على قدم وساق ، فكان هذا سبباً لوفود كثير من رجال دول أوروبا ودول العالم المختلفة الى بالرم . هؤلاء الرجال الذين كان للكثير منهم شأن في بلادهم ومعرفة بأحوالها السياسية والاجتماعية والجغرافية . كان ذلك الوقت هو العصر الذهبي للتورمانين في صقلية الذي عمت فيه سيادتهم جميع أنحاء الجزيرة ، والذي دخل تحت سلطانهم في خلاله قسم من ايطاليا وشمال أفريقيا . كل هذه العوامل سهلت للأدريسى القيام بمهمته الكبيرة الشأن ، ومكنته من أن يجمع الى معارفه الخاصة وملاحظاته الشخصية التي اكتسبها بأسفاره الطويلة وحالاته المتعددة ، وأن يضم اليها ما جعله يضع خريطة العالمية ويكتب كتابه « تزهة المشتاق » عنها بوجه لم يسبق اليه ، حتى كانت هذه الخريطة وذلك الكتاب مرجع المؤلفين الجغرافيين من بعده .

٤ - مؤلفات الأدريسى في المرة التي قضاها في صقلية .
لم يقتصر عمل الأدريسى في تلك المدة التي قضاها في بلاط بالرم على وضع تلك الخريطة ، ولكنه ألف غير ذلك أربعة كتب (١) كتاب تزهة المشتاق أو كتاب رجار الذي سبقت الاشارة اليه ، والذي اختصر فيما بعد تحت هذا الاسم عينه ، ولقد أطلعت على نسخة من هذا المختصر في مكتبة المعهد الشرقي بهامبورج مطبوعة بروما في سنة ١٥٩٢ م ومكتوب على هامشها أن هذا الكتاب أول ما طبع باللغة العربية (٢) كتاب الممالك والممالك الذي لم يصلنا منه الا بعض مقتبسات اقتبسها أبو الفدا عند كلامه على الجغرافية العربية . كذلك حدثنا عنه الشاعر ابن بشر الأندلسي ، وحدث أن الأدريسى ألف هذا الكتاب سنة ١١٦١ لتبجل رجار الثاني « قلهم » الذي حكم من سنة ١١٥٤ الى ١١٦٦ م (٣) كتاب روض الفرج ، وهو كتاب جغرافي صغير اكتشفه أحد الباحثين من نحو ثلاثين سنة بمكتبة خاصة في (استامبول) (٤) كتاب يبحث في وسائل العلاج البسيطة . فوق هذا نقل الأستاذ « ميللر » عن المؤرخين أنه كان شاعراً وأنه لم يصلنا من شعره الا بعض مقطوعات ، ولكنني لم أعر على شيء من هذه المقطوعات لأعرضه على قراء الرسالة .

٥ - كيف فكر رجار الثاني في وضع هذه الخريطة وكيف عمره الى الأدريسى بذلك ؟

عنى روجر الثاني عناية خاصة بالوسائل الجغرافية وأخذ يشتغل بدراسة الكتب الجغرافية المختارة الموجودة في ذلك العهد ، ولا سيما

مزلته في البلاط الملكي هناك ، وابتعدت هذا الدوى الهائل في الأفق العلى الذي ما زلنا الى الآن نسمع صده ، شجعه على قبول هذه الدعوة ورغبته في الفرار من وجه أعدائه وأعداء أمرته في البلاد العربية الذين بالقوا في اضطهادهم وطلبه ، وسماوا جهدهم في الكتابة به . رحل الأمير الى صقلية وأقام بها مدة حياته حتى قبض الى رحمة ربه سنة ١١٦٦ م . وهكذا كان حظه حظ جده الأول أدريسى . كلاهما استخلص لنفسه الحياة من مخالب الموت ، وفر من حظيرة الاضطهاد الضيقة الأنحاء الى مجبوحة الملك الواسعة الأرجاء . كلاهما شاد مجده وعزيمه دولة إدريسية ، غير أن دولة جده انقضت وأخني عليها الدهر ، ودولته هو خالدة لا تنقضي . والأمير ليس بغريب . فهذا شأن دولة العلم نصيبها الخلود والبقاء بينما تنقضي دولة الملك وتفتي . رحل هذا العالم الجليل والأمير النبيل الى صقلية وقضى بقية أيامه هناك ، قضاها في الانتاج والعمل الثمر . لم يحدد المؤرخون الوقت الذي رحل فيه الأدريسى الى صقلية تلبية لدعوة ملكها رجار « روجر الثاني » ولم يذكر وافي أي سنة كان هذا . غير أننا نستطيع أن نأخذ برأى الأستاذ « كونراد ميللر » ونستنبط ذلك من الحوادث التاريخية المرتبطة بالموضوع ، وعليه فلنا أن نقرض أن ذلك حدث قبل سنة ١١٣٨ م بقليل . فأنا نعلم أنه في تلك السنة عقد « رجار الثاني » العزم على العمل لوضع خريطة جغرافية ووضع كتاب يشتمل على وصف أجزاء المعمورة المعروفة في ذلك الوقت . هذا الأمر الخطير الذي لمب الأدريسى فيه دور البطل .

٣ - صقلية في ذلك العهد وعادة البيروط الملكي في بالرم .
كانت صقلية في ذلك العهد ملتقى العقول المفكرة ، ومحط رجال العلماء يأتون اليها من كل فج عميق ، وكانت بالرم العاصمة كعبة رجال العلم يسعون اليها من الشمال والجنوب لما عرف عن ملكها رجار الثاني التورماني من محبته للعلم وتقديره للعلماء واحترامه لهم من أي جنسية كانوا ، والى أي ملة انتسبوا . فقد كان بلاطه بحق حرم العلم ، من دخله من العلماء كان آمناً . هنا التقت الحضارة الاسلامية بالحضارة المسيحية ، وتعرف فن الشرق المسلم الى فن الغرب المسيحي فتأخيا وأخذوا يعملان جنباً الى جنب إخواناً متحايين لمصلحة العلم وفي سبيل تخير العالم . هناك ورث التورمانيون حضارة العرب الذين حكموا الجزيرة ٢٤٢ سنة من سنة ٨٣٠ الى ١٠٧٢ م والذين ورثوا حضارة الروم من قبل . في

جغرافية وما يتعلق ببعض نواحى علم طبقات الشعوب وعلم الاجتماع . أمرهم بأن يدرسوا هذا ثم يعضوا تقريراتهم عنه ، ولقد حل هؤلاء الرسل إذناً من الملك النورمانى رجار الثانى ليحضروا معهم كل ما يمدونه غزياً في باب أهمية جغرافية خاصة من الأمور الخارقة للعادة في باب الطبيعة ، وبعد أن تم ذلك وعاد أفراد تلك البعثة الاستكشافية من الجهات التى أرسلوا إليها ، وقدموا تقاريرهم اجتمع لدى الأدريسى ما يمكنه من وضع كتابه نزهة المشتاق .

٦ - كيف كانت صورة الارض في نظر الأدريسى عند وضع خريطة ؟

ولا بد لنا قبل أن نتكلم عن شرح الخريطة وبيان بنائها أن نشرح الصورة الأرضية التى كان يعتقد الأدريسى عند وضع خريطة . كان الرأى الشائع الى أواخر العصر المتوسط أن الأرض مسطحة عائمة على وجه الماء . نعم لقد شك بعض علماء اليونان في ذلك ونار عليه أفراد آخرون بعدهم ، ولكنه لم يزل رأى الأغلبية حتى نهاية ذلك الوقت . أما رأى الأدريسى يشاركه فيه علماء الجغرافيا الأخصائيون من العرب فقد كان غير ذلك ؛ اعتقد الأدريسى أن الأرض مكورة على شكل بيضة يحيط بها الماء ويتلاقى بها بواسطة قوة جاذبية طبيعية ، فالأرض نصفها وينحصر عن النصف الآخر مع كون هذا النصف الأخير المنحصر عنه الماء أخذاً شكلاً بيضواً منقباً بواسطة خط الاستواء الى قسمين متساويين : شمالي وجنوبي ، المعمور منها الشمال فقط . أما الجنوبي فهو خراب غير معمور لشدة الحرارة ولعدم وجود الماء ، ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن ابن رشد الطبيب والفيلسوف والفقير السلم (١١٢٦ - ١١٩٨) عارض الأدريسى في هذه النقطة ، فلقد روى عنه ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) في مقدمته (١) أنه ارتأى أن النصف الجنوبي من الكرة موافق للنصف الشمال منها تمام الموافقة في الجو والطبيعة وأنه مأهول بالسكان مثله ، وأن النقطة القريبة من خط الاستواء سواء كان شمالاً أو جنوباً شديدة الحرارة ، ثم تتدرج درجة الحرارة في الانخفاض بقدر بعد المنطقة عنه . ووافق ابن خلدون ابن رشد في أصل نظريته وأيدها بما ساق من الأدلة ، إلا أنه رأى أن النصف الجنوبي لا سكان فيه كما في الشمال ، وعلل ذلك بأن معظم القسم الجنوبي الصالح للسكنى مغمور بالماء .

محمد عبد الله ماضى

يتبع

(١) المقدمة من ٢٩ طبعة المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .

العربية منها ، ولكنه لما لم يجد بعد البحث الطويل ما يطفى غلته ويقضى به لباتته ويربح ضميره كباثت مجد . لما لم يجد جواباً واضحاً وحلاً موفقاً لما كان يجول بخاطره من المشكلات العلمية أخذ يستحضر رجال الخبرة الأجانب الذين وفدوا على مملكته من كل فج و يسألهم بواسطة المترجمين منفردين أو مجتمعين عن مواقع البلدان وحدودها ، وعن كل ما يتعلق بها جغرافياً كلاً بقدر ما اتصل اليه معرفته ، وقد كانوا كثيرى العدد ، فان توافقت أجوبتهم ولم تتضارب أقوالهم اعتبر إجابتهم صحيحة وأعطاهما قيمتها العلمية وقيدها وإلا ردها عليهم ولم يعتبرها ، وبعد أكثر من خمس عشرة سنة قضاها بلا انقطاع مع صاحبه الأدريسى في هذا العمل الخطير والبحث الشائق استقر الرأى على تقييد ما وصلوا اليه ورسمه في خريطة عالمية كاملة تبين فيها مواقع البلدان والبحار والأنهار والجبال الى غير ذلك كما وصل اليه البحث و انتهى اليه الاستقراء ، فأعطيت القوس باريها ، وعهد بهذه المهمة الكبيرة الى الشريف الأدريسى الذى رسم أصل هذه الخريطة ، ثم بعد هذا أراد الملك أن تحفر هذه الخريطة ثانية على لوح من الفضة ، فأحضر الصناع المهرة الذين أمموا هذا العمل تحت رعاية الأدريسى ورقابته ، وبعد أن جعل الملك مقدار أربعمائة ألف درهم من الفضة كما روى خليل الصفدى تحت تصرف الأدريسى لهذا الغرض اتخذ الأدريسى أقل من ثلث المقدار مائدة مستطيلة يبلغ طولها كما قدر الأستاذ «ميللر» ثلاثة أمتار ونصف متر وارتفاعها متراً ونصف متر تقريباً ، ثم حفر عليها بواسطة الصناع المهرة كما قدمنا خريطة بنائة الدقة والأتقان وتعام الموافقة لتلك الخريطة التى رسمها قبل القيام بعملية الحفر ، وكان الفراغ من هذا العمل الجليل الشأن في يناير سنة ١١٥٤ م .

وكشرح لهذه الخريطة وتطبيق عليها ألف الأدريسى كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أو كتاب رجار الذى أشرنا اليه ، وإنه لجدير بهذه التسمية بعد أن بذل هذا الملك الجليل تلك العناية الكبيرة ، وقدم هذا السى المحمود خدمة للمعلم وحبا فيه ، وقد كانت العناية بتأليف هذا الكتاب شعبة بأختها في وضع الخريطة . فقد اختار رجار الثانى والأدريسى عدة من الرجال الذين يصح الاعتماد عليهم في مثل هذه العظام وبشوم الى جهات العالم المختلفة ليدرسوا أحوال البلدان النائية ويدرسوا أهلها وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ويدرسوا حاصلات البلاد وحيواناتها وكل ما تنتجه ويميش فيها الى غير هذا مما له أهمية